كتابك

١٠٢

محمد فهمى عبد اللطيف

الحدوتة والحكاية
فى التراث القصصى الشعبى

دار المعارف

هـذا الكتاب

يقدم هذا البحث دراسة علمية عن التراث القصصى الشعبى : نشأته ، تطوره ، أساليب تناوله المختلفة . .

ويركز بصفة خاصة على الحدوتة والحكاية فى هذا التراث لما لها من وظيفة اجتماعية وثقافية على مدى التاريخ الإنسانى الطويل

ويختم المؤلف بحثه بعدد من الأمثلة والنماذج المتداولة من هذه الحكايات . .

٤٥١٣٨٢/١

١٠ ج

اقرأ ١٠٢

رئيس التحرير أنيس منصور

محمّد فهمى عبد اللطيف

الحدوتة والحكاية
فى التراث القصصى الشعبى

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

هذا البحث

هذا البحث يتضمن دراسة علمية عن التراث القصصى الشعبى فى نشأته وتطوره ، وموقع الحدوتة والحكاية من هذا التراث ، وتطورهما مع تطور قدرة الإنسان على السرد القصصى فى المجتمع البدائى الأول ، وما لهما من وظيفة اجتماعية وثقافية فى المجتمع .

وقد ختمت البحث بجملة من الأمثلة والنماذج من الحواديت والحكايات المتداولة فى مجتمعنا الشعبى المصرى .

وأرجو أن أكون قد وفقت إلى إعطاء القارئ صورة مكتملة الجوانب عن هذا الموضوع .

محمد فهمى عبد اللطيف

تراث الإنسانية العريق

على مدى التاريخ الطويل خلفت الإنسانية وراءها تراثاً ضخماً من القصص المختلفة الألوان . . يحسبه كثير من الناس مجرد مادة مرغوبة للتسلية الممتعة والسمر الشهى . . على أنه فى الحق أكبر من هذا قيمة وأعظم خطراً ؛ فهو تراث حافل بواقع التجربة ، ودلائل الحكمة ، وشواهد التاريخ ومعالم الإنسانية فى حياتها الأولى ، وهو بهذا كله صورة واضحة لهذه الإنسانية فى حقيقتها الأصيلة . . وفى طبيعتها الفطرية . . وإنه لأحفل بالشواهد والدلائل فى توضيح هذه الصورة من أى تراث إنسانى آخر . .

فأنت لاتستطيع أن تجد الإنسانية بحقيقتها الغريزية . . وعلى طبيعتها الفطرية فى ذلك التراث التاريخى الذى كتبه نفر من المؤرخين على هواهم . . وجعلوا وكدهم فيه قيام الدول وسقوطها . . وانتصارات الملوك وهزائمهم . . ولا فى ذلك التراث العلمى الذى انتحى به العقل ناحية خاصة يتوخى فيها ماينفع الناس . . ويعود عليهم فى حياتهم المادية . . ولكنك تجد الإنسانية بزَوْبرها . . وعلى سجيتها وطبيعتها الفطرية مكشوفة عارية فى تلك الألوان المختلفة كهذا التراث القصصى من الحدوتة والأسطورة والحكاية والقصة . . وما إلى ذلك من المأثورات

الشعبية المتنوعة ؛ إذ فى هذا التراث المتنوع الحافل تبدو الإنسانية بكل غرائزها ونزعاتها ، وكل معتقداتها ومقدساتها ، وكل تصوراتها وأوهامها عن الكون والحياة ، وفيما ترجو أن يكون لها من هذا الكون وفى هذه الحياة . .

والتعليل لهذا واضح : فإن التاريخ والعلم والفن كلها مظاهر ثقافية حضارية . . وقد بدأ الإنسان يؤرخ للوقائع والأحداث . . ويمارس العلم عقلاً وفكراً . . والفن روحاً وتأثراً وإحساساً . . بعد أن تثقف وتحضر . . واكتملت له أدوات التعبير وتنوعت . . وأصبح يحذق الأساليب الكلامية المصنوعة التى يعرف كيف يخفى وراءها حقيقته . . ويزور بها أغراضه ومآربه . . أما هذا التراث القصصى فقد بدأ مع الإنسانية منذ بدأت حياتها على هذه الأرض . . ويوم كانت تعيش طفلة ساذجة مع الطبيعة . . وجهاً لوجه . . وأمام الكون الهائل الغامض الذى لاتفهم له سراً . . وتحاول أن تعثر فيه على أى سر . . هكذا بدأت الإنسانية حياتها فى السرد القصصى يوم بدأت تتكلم . . وهكذا عاشت فى بناء هذا التراث القصصى على فطرتها وسجيتها بعيدة عن القيود الاجتماعية ، والاعتبارات العرفية ، وما زالت الإنسانية إلى اليوم تعيش فى هذا التراث متفلتة من هذه القيود والاعتبارات ، ولعلك قد خالطت الجماعات الشعبية . . وهم يتناقلون القصص والحكايات للسمر ، ورأيتهم كيف ينطلقون فى هذا على سجيتهم . . فيتناولوا كل شأن من

الشئون العامة والخاصة فى غير تحرج أو احتشام حتى فى اختيار الألفاظ والكلمات ؟

وشىء آخر يجعل القيمة الإنسانية فى التراث القصصى أكبر وأعظم منها فى أى تراث آخر : فالتاريخ يتوزع الناس أمماً وشعوباً ، ويقسّمهم إلى أجناس وسلالات . . ويقدر لهم قيمتهم بقدر مالديهم من الحضارة والثقافة ، والعلم فى نطاق محدود منعزل هو نطاق العقل الباحث المفكر الذى يرتفع دائماً فوق تفكير الناس وأوهامهم . والفن فى معارضه المختلفة . . وألوانه المتنوعة . . إنما يعكس ما فى زمانه ومكانه من مظاهر وإحساسات عامة أو خاصة ، وهى على أية حال إحساسات تلك النخبة الممتازة ممن نسميهم بأهل الفن . . ولكن فى التراث القصصى الشعبى تتلاقى الإنسانية على مستوى واحد سواء فى ذلك الجماعات البدائية والأمم المتحضرة ؛ إذ إن ملكة السرد القصصى لاتختص بأمة أو بجماعة . . ولاتتوقف كما قلنا على ثقافة أو حضارة . . ولكنها تصدر عن وحى الفطرة ، وإلهام الغريزة ، فهى ملكة غريزية عامة ترادف ملكة التعبير عند سائر الناس على اختلاف سلالاتهم وبيئاتهم . . ولهذا نجد البناء القصصى عند جميع الأمم والجماعات متفقاً فى وضعه وموضوعه . . ولا يختلف إلا فى بعض المظاهر الشكلية التى يقتضيها اختلاف البيئة جوًّا ونباتاً وحيواناً . . واختلاف طرق التعبير والأداء التى تتطور مع تطور الزمن والحياة . .

فالتراث القصصى تراث له قيمته وأهميته فى كشف مجاهل النفس الإنسانية ، وفى إشاعة روح التقارب والتعاطف بين الأمم والشعوب ، لأنه صورة لغرائزها وعواطفها الأصيلة المشتركة . . ثم فى تفسير المعتقدات والمقدسات التى سيطرت على هذه الأمم والشعوب ، ومازالت متعلقة بها إلى اليوم . . ومن ثم يعتمد المعنيون بالدراسات النفسية على هذا التراث فيما يقصدون إليه من التحليل لطبيعة النفس الإنسانية ، والتعليل لما ينتابها من انحرافات ، كما يعتمد عليه المعنيون بالدراسات الاجتماعية فى توضيح طبيعة التدين عند الإنسان وعلاقة هذا التدين بمظاهر الكون ، وتفهم نشوء العلاقات الاجتماعية ومدى التجاوب الاجتماعى عند بنى الإنسان .

وأخيراً فإن بعض علماء اللغة حاولوا أن يتخذوا من هذا التراث مادة للدراسة اللغوية . . ومعرفة كيفية نشوء اللغة وتطور الكلمات وتنوعها فى الدلالة على المسميات والمعانى ، أما أهل الفن الذين يتلمسون المعانى والمظاهر الإنسانية الفطرية ، فقد وجدوا فى هذا التراث نبعاً فياضاً بالإلهام فيما يزجون إلى الناس من روائع الشعر ، وبدائع النحت والرسم ، وآيات القصص الفنى الباقى على الزمن ، ومازال هذا التراث العريق معيناً يغترف منه الفنانون والقصاصون والشعراء . . ويستوحونه مايصنعون من روائع وآيات .

الحدوتة ونشأتها

وتعتبر الحدوتة أول لون من ألوان السرد القصصى عرفته الإنسانية فى طفولتها الأولى : فقد نشأت الحدوتة مع قدرة الإنسان على الكلام فى إطار ذلك المجتمع البدائى المحدود ، والذى كان يضم الرجل والأنثى ومالهما من صغار ، ولانستطيع أن نزعم أن الحدوتة فى ذلك المجتمع البدائى كانت عملاً عقلياً وفكرياً ، ولكنها كانت عملاً فطرياً دفعت إليه غريزة البقاء .. فهى وسيلة من وسائل التوقى محافظة على رابطة هذا المجتمع من ناحية .. وصيانته من الأخطار التى تحيق به من ناحية أخرى .. وعلى هذا يمكن أن نقول : إن الحدوتة نشأت فى إطار التحذير والتخويف من الضرر .. وتوجيه الأوامر والنواهى لتجنب الخطر ؛ فهى لاشك أول عمل تربوى عرفته الإنسانية منذ بدأت تحس بكيانها الإنسانى فى هذا الوجود ..

ويعتقد الكاتب الإنجليزى « هـ . ج . ولز » أن الخشية من الرجل المسن كانت بداية الحكمة الاجتماعية والسلوك التربوى فى المجتمع الأول ، إذْ بدافع هذه الخشية بدأت الأمهات يغرسن فى نفوس الأبناء الصغار احترام الرجل المسن وتقديره .. ويحذرنهم من العبث بأشيائه ، أو الجلوس فى مكانه .. كما هو الشأن اليوم ؛ إذ ترى الأمهات يحذرن

الأبناء من أن يعبثوا بحاجات آبائهم .. أو أن يجلسوا فى مقاعدهم ..

ويرى « ولز » فى ضوء التحليل النفسى الحديث أن الرجل المسن كان يستبد به الحنق على الذُّكران الصغار ؛ لأنه يرى فيهم خطراً على سلطانه ، ومزاحمة لمكانه فى الأسرة ، فكان يلجأ إلى العنف معهم .. والقسوة عليهم .. وكانت الأم على النقيض من ذلك : فهى أشد إنسانية وألفة وأكثر ترفقاً وحناناً ، وأحرص على رابطة هذا المجتمع وتآلفه وانسجامه ، فكانت تدرّب أولادها على طاعة الرجل المسن ، وتغرس فى نفوسهم الخشيةِ والمهابة له ، وتهمس فى آذانهم دائماً بالنصح والتحذير .. وكانت الحدوتة وسيلة لهذا النصح والتحذير ..

وأنا مع « ولز » فى أن الحدوتة نشأت على لسان المرأة .. وأنها عمل من خلقها وإبداعها .. ومازالت إلى اليوم لاينازعها فيه منازع .. وأنا معه كذلك فى أن الحدوتة نشأت أول مانشأت فى نطاق المحظور عند حدود الأمر والنهى .. والتخويف والمنع .. ثم أخذت تتطور مع قدرة الإنسان على الرواية بزيادة محصوله من اللغة والألفاظ المعبرة .. ولعل الرؤى والأحلام كانت من أكبر العوامل التى ساعدت الإنسان فى القدرة على الرواية والقصص .. وتخيل الصور والوقائع .. وبخاصة تلك الأحلام الثقيلة التى يسمونها بالكابوس .. والتى تحدث نتيجة لما كان يتناوله الإنسان من طعام غليظ ثقيل .. ولما يعانيه فى بيئته من المخاوف والشدائد والأهوال المفزعة ..

ولكنى لست مع «ولز» فى أن خشية الرجل المسن كانت هى كل المحظور الذى اقتضى التحذير والمنع والتخويف فى ذلك المجتمع .. وأنها كانت المصدر الوحيد الذى نبعت منه التقاليد الاجتماعية والروابط الأسرية .. ونشأت فى نطاقه الحدوتة ؛ فقد كان هناك ما هو أشد خشية وأدعى إلى التحذير والتخويف والمحافظة على كيان هذا المجتمع بصغاره وكباره .. كانت هناك الوحوش المفترسة .. والأفاعى القاتلة .. والطيور الكاسرة ، والجوارح المنقضة .. وكانت هناك الأعاصير الجائحة .. والصواعق الحارقة ، والرعد القاصف ، والبرق الخاطف ، وتلك النوازل والأهوال التى لايدرى الإنسان لها سبباً .. ولا يعرف عنها خبراً .. إلا أنه يراها تقتل وتفتك وتجتاح الإنسان اجتياحاً .. فتثير كل هذه فى نفسه ماتثير من الخيالات والأوهام .. ويحاول أول ما يحاول أن يبتعد عن طريقها ، وأن يحمى نفسه من أخطارها .

* * *

وكان من الطبيعى أن تعكف الأم وهى الحاضنة الحانية على منع الصغار من التصدى لهذه المخاطر ، وأن تلقنهم تجربتها لتجنب تلك المهالك ، وأن تقصّ عليهم فى ذلك ما تتمثله عن الوحوش والأفاعى والحيوانات الرهيبة ، أو ما تتخيله من الكائنات الخفية مثل المردة والجن والأشباح العجيبة ، فإذا ما وضعنا هذا كله موضع الاعتبار وضممنا إليه ما ذكره «ولز» عن خشية الرجل المسن .. اكتملت لدينا كل صور

« المحظور » التى نشأت فى نطاقها ونبعت منها الحدوتة ، والذى لاشك فيه أنها فى نشأتها كانت ضئيلة الحجم ، محدودة الخيال .. ثم تطورت مع تطور قدرة الإنسان على السرد القصصى ..

عناصر الحدوتة

والحدوتة فى تكوينها ومضمونها إلى يومنا هذا مازالت تحمل تلك العناصر التى نبعت منها ونشأت فى نطاقها ، فأى حدوتة تحترم نفسها لابد أن يكون بطلُها وحشاً مفترساً .. أو أفعى هائلة ، أو مارداً جباراً ، أو جناًّ خفياًّ ، أو شيئاً غريباً ، حتى إذا كان إنساناً فلابد أن يظهر فى تلك الصورة الرهيبة التى تحمل طابع الغرابة والمبالغة فى التخويف والترهيب ، مثل «أم الغولة» و «أم الشعور» و «أم بزاز حديد» أو «أبو رجل مسلوخة» و «أبو فروة» .. إلى آخر تلك الشخوص التى عرفها كل منا ، وانطبعت فى ذهنه صورة عنها منذ الصغر ..

وكل شىء فى الحدوتة يتكلم ؛ الحيوانات والأفاعى والطيور .. وكذلك الأشجار والأحجار والأعاصير ، حتى الجن الذى لايرى ، والمارد الذى هو من صنع الخيال ، وهذا لاشك أثر من اعتقاد الإنسان فى حياته الأولى يوم كان يعيش مع الطبيعة وجهاً لوجه ، وكان يري هذه الكائنات والأشياء تحت بصره .. وهى تتحرك وتقتل وتفتك ، وتعوق سيره فى الطريق ، وتضايقه فى شئون الحياة ، فيعتقد أنها حية .. لها إرادة ، وفيها قدرة النطق ، وحرية العمل مثل الإنسان ، فيحاول أن يتغلب عليها بالقوة إن استطاع ، وإلا فبالحيلة ، أو بالترضية .. أو

بالهرب منها .. وهذا أمر مألوف فى منطق الطفولة إلى اليوم : فإننا نرى الطفل إذا ماعثرت قدمه فى حجر انهال على الحجر شتماً وركلاً .. كأنه طفل مثله ينتقم منه ، ويرد الإساءة إليه ! وإذا مانبحه كلب قذفه بحجر إن قدر على ذلك ، وإلا ترضاه بشىء مما فى يده من الطعام .. أو أسرع بالهرب من أمامه .. وليس من شك فى أن هذه الصورة التى حملتها الحدوتة عن اعتقاد الإنسان الأول وتصوره لعالم الحيوان والطير وظواهر الكون كان لها أثر كبير فى العقائد الدينية المختلفة .. وتقديس بعض الحيوانات والأشجار والأحجار ، حتى فى هذا الزمن الذى نعيش فيه .. أما تأثيرها فى الفكر والأدب فقد كان أكبر وأروع .. وبخاصة فى القصة والشعر .. ويكفى أن تعرف أن أكبر قسط من تراث الأمم فى الحكمة قد وصل إلينا على ألسنة الحيوانات والطيور .. ويكفى مثالاً لذلك كتاب كليلة ودمنة ، وذيوعه فى الآداب العالمية ..

أول أدب خائل :

والحق أن الحدوتة تعتبر أول لون عرفه العالم من ألوان الأدب الخائل .. وهى بخيالها الساذج المغرق فى الغرابة والموغل فى الخوارق والتهاويل تعتبر صورة صادقة لإدراك الإنسانية فى طفولتها الأولى ، ثم هى أيضاً صورة ملائمة دائماً لنزعة الطفولة وإدراكها على مدى الزمن ، وهذا هو سر بقاء الحدوتة عبر العصور الطويلة وذيوعها بين مختلف

الشعوب .. بشكلها ومضمونها وخيالها المحلق فى جو الغرائب والعجائب ، لأن الأطفال بل الناس جميعاً على اختلاف أسنانهم ومداركهم لايتصباهم ويثير شغفهم وإعجابهم إلا الأمر المدهش الخارق الذى يبدو فوق عقولهم .. فهم لم يؤمنوا بالأنبياء إلا بعد أن أتوا لهم بالمعجزات الخارقة ، وهم لا يذعنون إلا للعمل القاهر حتى فى تقديرهم لما نسميه بالأدب الفنى الرفيع .. فإن القصة لاتثير إعجابهم وشغفهم إلا بقدر ما تتضمنه من المخالفة للمألوف وماتحتويه من عناصر الإدهاش ..

وأثر الحدوتة وتأثيرها فى المجتمع الإنسانى أمر لايستهان به أبداً ، فهى بهدفها التربوى قامت ومازالت تقوم بدور خطير فى التهذيب ، وكبح عَنان الطفولة الجامح بالتحذير والتخويف ، ولاشك أنها فى هذا أجدى تربويًّا من وسائل الضرب والزجر التى تغرس فى نفس الطفل البغض والحنق والنفور ، وإنها يرجع كثير من الأثر فى ترابط الأسرة ، فهى تنشئ الطفل على حب الأم واحترام الأب ، وتقدير الإخوة وإيثارهم ، وإنما يكون للحدوتة كل هذا الأثر لأنها تلقى إلى الأذهان الغضة التى تتقبل كل شىء ، وتتشبع به . . فتبقى الصور والدلائل التى تحملها الحدوتة راسخة فى تلك الأذهان على مدى الحياة .. حتى إذا ماتخلّى عنها العقل الظاهر فى فترة من فترات تلك الحياة . فإنها تظل مرتبطة بما يسميه علماء النفس بالعقل الباطن . . فتؤثر فى سلوك الإنسان على غير وعى منه . . لأنه تأثير ترسب فيما وراء الشعور . .

وعلى العموم فالأسرة هى بيئة الحدوتة ، فيها نشأت كما قلنا من قبل وفيها كبرت ونمت حتى بلغت الغاية التى هى عليها اليوم ، فالحدوتة تتحدث إلى الأبناء عن الآباء والأمهات ، وعن كل مايجرى فى نطاق الأسرة ، ومالها من أوضاع وارتباطات : فتذكر زوجة الأب التى لاترحم ، وما يكون بين الضرة وضرتها من مكايدات .. وما يعانى زوج الاثنتين من شقاء وارتباك ، على أنها توجّه الحديث فى كل هذا إلى الخير دائما ، وإلى هدهدة نفوس الأبناء الغضة بالأمانى الجميلة ، والآمال الحلوة .. وتدلهم على أن العمل الطيب له ثمرته الطسة ، وأن الخير جزاؤه الخير .. وأن الشر عاقبته الشر والبوار ..

والحدوتة فى أدائها وأسلوبها تجرى على نسق تربوى رائع : فهى فى دور الطفولة الغضّة تتحدث إلى الأطفال بصيغة الجمع : أى إلى الأولاد والبنات معاً ، وتكون فى صورة بسيطة ملائمة لإدراك الأطفال فى الفترة الأولى من حياتهم ، فيكون قوامها حادثة بسيطة قصيرة ، ولايزيد أبطالها على شخصين أو ثلاثة .

أما فى مرحلة النضج ، فإن الحدوتة تتحدث حديثاً خاصًا إلى كل من الأولاد والبنات : بمعنى أنها تتحدث إلى الأولاد بما يلائمهم ، وإلى البنات بما يلائمهن ، ثم هى تتسع فى نطاقها ، فيطول فيها السرد القصصى ، وتتعدد فيها الأبطال .. ولابأس من أن يكون الأبطال من

جنس مدهش مخيف .. أو قوة خفية خارقة ، مثل : الوحوش والجن والعفاريت ..

وللحدوتة فى أدائها تقاليد معروفة فى المجتمع المصرى : فإذا كانت الجدة مثلا تتحدث إلى صغيرها أو إلى مجموعة من الأطفال الصغار — فإنها لاتبدأ الحديث بوقائع الحدوتة بل لابد أن تهيئ أذهانهم بعبارة مشوقة : كأن تقول لهم : حدوتة بالزيت ملتوتة تحب تاكلها والاّ تسمعها ، فيقول الطفل : أسمعها .. ثم تمضى فى سرد الحدوتة .. فإذا كان الطفل أو الأطفال كباراً فى سن ناضجة فإنها تبدأ الحديث بالعبارة التقليدية المألوفة فتقول : كان ياما كان .. ياسعد يا إكرام .. مايحلى القول إلا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام ..

الحكاية بعد الحدوتة

ثم جاءت الحكاية الشعبية بعد الحدوتة ..

والحكاية الشعبية نشأت على امتداد الحدوتة مرحلة ثانية فى حياة الإنسان القصصية ، بعد أن نمت فيه القدرة على السرد القصصى والتخيل والمحاكاة والتعبير ، وبعد أن كثرت مصالحه وتنوعت مطالبه .. فى مجتمع تعددت أفراده وجماعاته ، وصارت له تقاليده وأوضاعه وعاداته .

أقول : نشأت الحكاية على امتداد الحدوتة ، ولا أقول إنها تطورت عنها .. أو تفرعت منها كما خيّل لبعض الباحثين ، وهناك فرق دقيق بين التعبيرين ، فنحن مثلاً إذا أردنا الدقة فى التعبير لانقول : إن استخدام الإنسان للسيارة فى الرحلة والتنقل تطور عن استخدامه للجمل ، لأن الجمل لم يتطور إلى سيارة ، وإنما نقول : إن السيارة التى اخترعها الإنسان كانت مرحلة جديدة فى حياة الرحلة والتنقل جاءت على امتداد مرحلة سابقة ، هى مرحلة استخدام الإنسان للجمل ، وقد استخدم الإنسان السيارة وبقى الجمل على حاله .. يؤدى للإنسان ما كان يؤديه من قبل فى الرحلة وحمل الأثقال ..

وهكذا الحدوتة .. نشأت كما قلت من قبل مع الإنسانية فى طفولتها

الأولى ، يوم كان الإنسان حيواناً جوّالاً يعيش فى جماعة قليلة العدد — محصورة الأفراد ، وعلى هذا الوضع الفطرى الساذج عاشت الحدوتة فى بيئة الأطفال الصغار ، وفى حدود إدراكهم ومستواهم ، وما زالت إلى اليوم تجرى على وضعها المألوف المتوارث فى الأداء والتعبير والغرض ، لم تخرج عن النطاق الذى نشأت فيه ، ولم تتطور ، كما أن الجمل لم يتطور إلى سيارة .

أما الحكاية فكانت طوراً جديداً فى حياة الإنسان القصصية .. نشأت مع الإنسان الناضج فى الحياة المدنية ذات الجماهير الفقيرة ، وذات المتاعب والمصالح المشتركة المتشابكة .. وبعد أن اكتمل الأداء اللغوى عند الإنسان .. ونضجت فيه القدرة على السرد والنقد والملاحظة الشخصية ، وأصبح يملك قدراً كبيراً من الذكاء البارع يساعده على تزجية مالديه من نقد أو ملاحظة فى أسلوب قصصى مدهش يقوم على المحاكاة .

ويبدو أن القدماء كانوا يدركون هذا الفرق بين موقع الحدوتة وموقع الحكاية .. ووضع كل منهما فى التاريخ القصصى للإنسان ، فهم حين اختاروا للحدوتة هذا الاسم يشيرون إلى أنها قصص بدائى نشأ مع قدرة الإنسان على « الحديث » والكلام ، ولكنهم وضعوا الحكاية فى وضع أرقى وأنضج حين أطلقوا عليها هذا الاسم لأنها مأخوذة من المحاكاة ، أى محاكاة حال واقعة بحال متخيلة .. والقدرة على المحاكاة بهذه الصورة

لايمكن أن تكون إلا من رجل ذكى نضج عنده الفكر والأداء والخيال ..

ونحن فى الواقع إذا تأملنا الحكاية فى صورتها التعبيرية نجدها لوناً من ألوان التمثيل الكلامى الذى يعتمد على فرد واحد هو الذى يبتدع الحكاية ، ويتصور وقائعها ويرويها للناس ، وأبناء الريف فى مصر يفهمون هذا المعنى التمثيلى فى مدلول الحكاية فيسمونها بالمثل ، ويقولون : فلان يروى « مثلات » : أى حكايات .. وتعريف المثل عند العرب ينطوى أيضا على هذا المعنى : فالمثل عندهم كلام له مورد ومضرب : أى أنه كلام وارد فى حالة ويضرب لحالة مماثلة ، وليست الأمثال العربية إلا عناوين لقصص وحكايات اشتهرت بين الناس وسارت عندهم سير الأمثال ، فإذا ما واجه الإنسان فى حياته حكاية مماثلة لواحدة منها اكتفى بإيراد المثل الوارد فيها اعتماداً على أن القصة الأولى معلومة مشهورة .

الحكاية والحدوتة :

وعلى الجملة يمكن أن نقول : إن الحكاية صورة اجتماعية أكمل وأشمل من الحدوتة .. وأن موضوعها أوسع نطاقاً وأرحب مجالاً ؛ فهى أسلوب اجتماعى هدفه الإصلاح والتقويم والتوجيه والمدافعة فى مجال الحياة العامة ، وعلى هذا نجد فيها النقد اللاذع ، والسخرية المرة ،

والفكاهة الضاحكة اللاذعة ، كما نجد فيها إثارة العبرة الرادعة ، أو القدرة النافعة ، أو الإقناع بحقيقة الواقع الأليم الذى تتجنبه النفوس .

ومن الطبيعى أن تكون الحكاية بهذه الصورة الاجتماعية مادة متطورة مع الزمن ، فهى دائماً تلاحق المجتمع فى تطوره وتتابعه فى اتساع نطاقه ، وتعدد أغراضه ، وتنوع مصالحه . لاتقتصر على ناحية من نواحى هذا المجتمع ، أو تقف عند جانب من جوانبه .. بل تشمله من جميع النواحى والجوانب فى أسلوب المعيشة ، وفى أسلوب التعامل والتواصل بين الأفراد والجماعات ، وفى الدين والتدين ، وفى الحكم وأسلوب الحاكمين ومعاملتهم للمحكومين ، حتى فى النواحى الشخصية المستورة من حياة الناس .. أو الذين يؤثرون سترها .

وبهذا التفاعل مع أحداث المجتمع كانت الحكاية وعاء لكثير من أحداث التاريخ ، وتصويراً دقيقاً لوقائع هذا التاريخ يدل على صدق الإحساس الشعبى العميق بهذه الوقائع ، ولهذا يجب على المؤرخ الدقيق أن يجعل الحكاية الشعبية من المصادر التى يعتمد عليها إذا أراد أن يقدم صورة حيّة لروح الشعب الذى يؤرخ حياته ، وأن يكشف عن إحساسه بالأحداث التى أحاطت به .. والواقع الذى عاش فيه ..

والهزات التاريخية والأحداث الطارئة فى المجتمع ، هى فى العادة مصدرٌ خصبٌ لخلق الحكايات وتناقلها بين الناس ، وفى هذه الحال تلبس الحكاية لباساً محلياً بحتاً ، وتكون فى شكلها وتعبيرها صورة لروح المجتمع

الذى تصدر عنه ، ومظهراً لطابع البيئة التى تتحكم فيها والحكاية التى من هذا النوع تذيع وتشيع بين الناس ، وقد تكون دقيقة رائعة فى موقعها ، ولكنها لاتلبث أن تختفى باختفاء المناسبة التى حكيت فيها وصدرت عنها ، ولهذا السبب تموت المئات من حكايات المناسبات فى حياة الأمم ، على أن بعض هذه الحكايات قد يعود إلى الظهور مرة أخرى فى مناسبة مماثلة ، أو مقاربة .. ولكن فى شكل يتفق مع المناسبة الجديدة ..

أبطال الحكاية

والحكاية مثل الحدوتة . تتخذ أبطالها فى كثير من الأحيان من الحيوانات والحشرات والطيور ، ومن الجن والعفاريت والشياطين ، فتحركهم كما تريد ، وتنطقهم بما تريد ، ولكن الحدوتة تعمد إلى هذا بقصد إثارة الدهشة أو التخويف أو التشويق عند الأطفال ، أما الحكاية فإنها تتخذ من هذا وسيلة للرمز والتخفى وراء هذه الشخوص المستعارة . فقد تكون الحكاية نقداً لحاكم مسلط ، أو تحقيراً لعدو غاشم ، أو تشنيعاً على ظلم واقع ، أو تنديداً وسخرية بحالة من الغفلة والبلادة شائعة بين بعض الأشخاص أو بعض الطوائف ، وهذا اللون من الحكايات يكثر ويروج فى عهود الظلم والطغيان ، وفى فترات التاريخ القاسية التى تعانى فيها الشعوب والجماعات من الكبت والحجر على الحريات والأرزاق ..

وتوضيحاً لهذا الفرق يمكن أن نقول : إن الحيوانات فى الحدوتة حيوانات عاقلة ، لها إدراك وتفكير ؛ فهى فى الواقع تؤدى دورها على أنه حقيقة ؛ لأن الحدوتة كما قلت فى مطلع هذا البحث نشأت فى مرحلة الطفولة الإنسانية ، وكان الناس يعتقدون أن الحيوانات والطيور والحشرات ، بل الأشجار والأحجار مخلوقات حيّة لديها القدرة على العمل والنطق .. ولها إرادة فيما تفعل . أما فى الحكاية فهى مجرد رموز

وشخوص يختفى وراءها الإنسان الذى يتكلم ويدبر ويفعل .

ويبدو أن الإنسان استخدم الحيوانات فى الحكاية بعد أن درس طبيعة هذه الحيوانات بالتجربة والمشاهدة والمعاشرة ، فنراه يستخدم الحيوان فى الحكاية استخدام الخبير العارف ، ويقدمه لأداء الدور الذى يلائم طبيعته ، والصفة التى اشتهر بها ، فالأسد للافتراس ، والذئب للغدر ، والكلب للوفاء ، والثعلب للمكر والخديعة . . إلى آخر ما هو معروف ومألوف فى طبائع الحيوانات .

وكثيرا ما يكون بطل الحكاية ومحورها شخصية معبرة عن معنى من المعانى الشائعة فى المجتمع .. وتكون الشخصية فى هذه الحالة شخصية حقيقية تاريخية تشتهر بين الناس بصفة من الصفات .. فيستغل الحكّاة هذه الشهرة ويجعل من الشخصية التى تتمثل فيها محوراً ينسج حوله ما شاء من الحكايات والنوادر والمفارقات التى تعبر عن روح المجتمع وحقيقة رغباته وميوله المكبوتة .

وفى الحكايات الشعبية عند جميع الشعوب شخصيات معروفة مشهورة من هذا القبيل .. وفى الحكايات المصرية عدد من هذه الشخصيات نالت شهرة واسعة على تعاقب الزمن .. حتى صار كل منها عنواناً على عدد ضخم من الحكايات التى تحمل طابع هذه الشخصية .. وتبرز المعنى الحقيقى الذى يتمثل فيها .. أو على الأصح الذى أراد الحكاة أن يبرزه بأسلوبه توصلاً للغرض الذى يقصده :

فشخصية « قراقوش » جعلها الحكاءون عنواناً لعدد كبير من الحكايات التى تدور حول الظلم والحكم الجائر الطائش الذى لايستند إلى عدل أو عقل أو إدراك إنسانى .

كما جعلوا من شخصية « جحا » عنواناً لعدد لا يحصى من الحكايات والمفارقات التى تبرز معانى الغفلة أو الحكمة أو العبرة فى الأمور الشائعة بين الناس .

وكذلك شخصية « أبو نواس » الشاعر الإباحى كانت عنواناً لمئات من الحكايات والنوادر المكشوفة التى يتحدث بها الناس فى مجالسهم الخاصة ، وهى فى الحقيقة تشير إلى معنى من المعانى الشائعة فى المجتمع .

والواقع أن شخصية من هذه الشخصيات لاتكون مقصودة بذاتها فى الحكاية .. إنما هى شخصية تمثيلية ترمز لمعنى ، يمكن أن يتمثل فى أى شخصية أخرى من هذا الطراز :

فالحكايات التى تروى عن « قراقوش » إنما هى فى الحق تعبير عن الكبت السياسى فى المجتمع الذى يعيش تحت وطأة حكم ظالم غاشم ..

والحكايات التى ترد على لسان « جحا » تعبير عن الكبت الاجتماعى الذى تفرضه التقاليد والعادات الجامدة .

وكذلك الحكايات التى تقال عن « أبو نواس » تنفيس عن الكبت الجنسى الذى تفرضه الحدود والقيود الصارمة فى الصلة بين الرجل والمرأة .

وعلى هذا تبقى هذه الشخصيات حية فى المجتمع ، باقية على امتداد التاريخ ، وكلما امتد بها الزمن على هذا النحو زادت شهرتها بزيادة المحصول الذى يروى عنها ، أو على لسانها من الحكايات والمفارقات ..

وهكذا نجد الحكاية تلتزم بالتخفى والتستر وراء بطل مستعار من الحيوان ، أو من الجن ، أو من التاريخ .. ما دامت تجرى بموضوعها فيما يمكن أن نسميه (بنطاق الخطر) ، أى عند توجيه النقد إلى وضع قائم ، أو عدو غاشم ، أو أمر محفوف بالتوقى والتحرج ، أما إذا كان موضوع الحكاية خارج هذا النطاق مثل الحكايات التى تتناول بعض الشئون العامة ، أو بعض الطوائف التى لها طابع خاص فى المجتمع فإن البطل فى هذه الحالة يكون شخصية نموذجية للصفة التى تمتاز بها الطائفة مثل : الفلاح العبيط ، والصعيدى المغفل ، والبربرى الساذج ، والفتى المتقعر ، والشيخ المتفرنج .. والأفندى المتحذلق إلى آخر تلك الصفات الشائعة الذائعة ، وهذا اللون من الحكايات أقرب إلى المفارقات الساخرة ، والنوادر الضاحكة . ولعل المجتمع المصرى أغنى المجتمعات بهذه المفارقات .. نظراً لما يمتاز به من روح الفكاهة ، ونزعة السخرية ، وخفة الطرب والانفعال بكل ما هو مطرب ..

ذلك هو وضع الحكاية فى التاريخ القصصى للإنسان ، وتلك هى وظيفتها الاجتماعية وقيمتها الثقافية ، ولعلى استطعت فى هذا النطاق الضيق أن أحدد معالم الحكاية ، وأن أوضح الفرق بينهما وبين الحدوتة ،

فإن الكثيرين من الباحثين مازالوا يخلطون بينهما .. على أن الفرق بينهما كبير كما رأيت ، وأعتقد أن الأوان قد آن لأن تخرج الدراسات الشعبية عندنا من نطاق التعميم إلى نطاق التحديد ، فإن القائمين بهذه الدراسات مازالوا يخلطون بين أنماط المأثورات الشعبية من الحدوتة والحكاية ، والأسطورة والخرافة ، والقصص والأمثال الشعبية ، ويضعون هذا كله فى وضع واحد من الفهم والحكم والتقدير والخلط فى القيم والأوضاع الأدبية والفنية شر ما منيت به حياتنا فى هذه الأيام .

القيمة الأدبية للحكاية :

بقيت كلمة لابد منها استكمالاً للبحث عن القيمة الأدبية للحكاية ، وفى الحق أن الحكاية تعتبر فى ذاتها وبالإطار الذى عرفت به صورة أدبية وفنية كاملة ، قد تطول الحكاية وقد تقصر .. ولكنها لاتتجاوز هذا الإطار فى أداء غرضها .. والإفادة بمضمونها .. فهى بصورتها البسيطة المحدودة مقطع كامل الإفادة ، ولهذا ظلت الحكاية وعاشت وهى تمثل لوناً أدبياً قائماً بذاته .. وعنصراً له أصالته فى ألوان الأدب الأخرى ..

ومع أن الحكاية خرجت فى نشأتها من المجتمع الشعبى ، وكان هذا المجتمع البيئة التى تربت فيها ونمت - كما أوضحنا من قبل - فقد كان ولايزال لها دور كبير فى الحياة الأدبية لجميع الأمم والشعوب .. وكانت مادة خصبة استغلها الأدباء والفنانون فى خلق ألوان جديدة من

الأدب : ففى أوربا صنعوا ماسموه بالحكاية الأدبية ، وقد تخصص فى كتابتها واشتهر بها عدد من الكتاب البارزين ؛ كما كتبوا ماسموه بالدراما الحكائية ، والأوبرا الحكائية ، واتخذوها المادة الأساسية لكتابة الأدب التربوى للأطفال ..

وفى الزمن القديم اتخذ «أيسوب» من الحكاية أداة لتوجيه النصح والحكمة ، فكتب تلك الحكايات والأمثال التى اشتهرت باسمه .. وانتشرت فى جميع الآداب العالمية ..

وفى أدبنا المصرى القديم تراث كبير من الحكايات والأمثال الحكائية لم نوفق حتى الآن إلى الانتفاع بها وإخراجها فى شكل أدبى ملائم ، وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن «أيسوب» قد استقى حكاياته وأمثاله من التراث المصرى القديم .

وأدب الأطفال فى جميع الآداب العالمية يعتمد أساساً على الحكاية ، وبخاصة الحكايات التى يدور الحديث فيها بين الحيوانات والطيور وتعتبر حكايات «لافونتين» وأمثاله التى نظمها شعراً مثالاً رائعاً فى هذا الأدب ، وهى حكايات وأمثال ترجمت إلى العربية .. وقد احتذاها الشاعر (أحمد شوقى) فى أول حياته الأدبية ، فنظم عدداً من الحكايات على لسان الطيور والحيوانات .. وقدّم (ابراهيم بك العرب) مجموعة منظومة من هذه الحكايات والأمثال فى كتاب كان مقرراً على المدارس فى الجيل السابق ..

والحكاية بعد هذا هى الأصل الذى قامت عليه القصة الشعبية ، سواء القصيرة منها أو الطويلة : فالقصة الشعبية ليست إلا مجموعة من الحكايات يتعدّد فيها الحدث والموقف .. وبراعة القصاص الشعبى تتجلى فى جمع هذه الحكايات فى نسق قصصى متناسب فى الوضع والغاية ، ولقد نجد فى القصة الشعبية عناصر من الحدوتة والأسطورة ، ومن التاريخ والأمثال والأحاجى ، ولكن الحكاية هى العنصر الأول والأصيل فى القصة ، ونحن إذا مانظرنا إلى أية قصة من قصص «ألف ليلة وليلة» فإننا نجدها مجموعة من الحكايات تتتابع فى السرد القصصى. وفى نطاق البناء المتلائم لبناء القصة ، وهذا هو السر فيما تراه من تشعب الأغراض وتعدد العقد فى القصة الشعبية .. وإن كان جل هذه العقد يتم دائماً على وضع متفق ، وهو الوضع الذى يتمثل فى استخدام القوى الخارقة من الجن والسحر والطلاسم ..

تراثنا الشعبى

من الحواديت والحكايات

تعتبر مصر من أغنى الأمم وأثراها بالتراث الشعبى من الحواديت والحكايات ، والقصص والأمثال ، وهو تراث ضخم عريق ، يجد الباحث فيه صورة الشعب المصرى بروحه وطبيعته وفطرته ، وإحساسه بالحياة ، وفلسفته فى الوجود ..

هذا التراث الضخم العريق هيأته لمصر عدة عوامل طبيعية ، وأول هذه العوامل أنها هبة النيل كما قال هيردوت ، وبيئة زراعية منذ كانت ، فشعبها يعيش على أرض موفورة الخصب والماء ، كثيرة الخير والنماء ، تجود بالعطاء الكثير مع الجهد القليل ، وحسب الرجل أن يبذر الحب ويرجو الثمار من الرب ، وبين البذر والحصاد وقت طويل للترفه والاسترخاء ، يفرغ الناس فيه للحديث والسمر ، وتناقل الأخبار والأسرار والاحتفال بشئونهم العامة والخاصة ، ومن هنا كانت البيئة المصرية بيئة التأمل والتدين ، وبيئة الحواديت والحكايات ، والقصص والأمثال ، وما إلى ذلك من المأثورات الشعبية المعروفة ..

وثانى العوامل الطبيعية التى هيأت لمصر هذا التراث الشعبى الضخم هو موقعها الجغرافى .. فبحكم هذا الموقع الممتاز أرضاً وجواً – كانت

قبلة الأمم والشعوب منذ وجودها الفرعونى الأول الذى يترامى وراء حدود التاريخ .. وكانت لها خلطة مع هذه الأمم والشعوب يطول بها الزمن أو يقصر ، وفى غمار هذه الخلطة أعطت مصر كثيراً مما عندها ، وأخذت ما يروق لها ويلائم طبعها ، ولعلنا نجد صورة واضحة لهذا فى قصص « ألف ليلة وليلة » وهو كتاب صنعه القصاص الشعبى المصرى فى القاهرة ، وجمع مادته من القصص والحكايات والنوادر من القاهرة ..

ثروة ضخمة من التراث الشعبى .. فيه حكمة الأيام ، وتجربة الزمن ، وفلسفة الفطرة لشئون الحياة .. وموقف الناس من هذه الحياة ، ولكنها مع الأسف لم تجد من عنى بجمع أشتات هذا التراث من الحواديت والحكايات والقصص الشعبى فى تنسيق مهذب على نحو ما فعل « الأخوان جريم » ، إذ قاما فى أوائل القرن التاسع عشر بجمع الحواديت والحكايات الشعبية بألمانيا فى مجموعة ضمت مائتى حكاية ، وكان لها تأثيرها الكبير فى الحياة الأدبية فى أوربا كلها ومازال تراثنا ينتظر الباحث الذى يتناوله بالدراسة ويخرجه فى تنسيق علمى خدمة للحياة الأدبية والفنية ، ولقد كتبت هذا البحث عن الحدوتة والحكاية فى هذا الحيز الضيق ، وحسبى به أن يكون إشارة تنبيه إلى الاهتمام بهذا الجانب من الدراسات الشعبية ، وإتماما لهذا البحث رأيت أن أتبعه نماذج من الحواديت والحكايات الشائعة فى البيئة الشعبية ولعلى أعود فأستوفى هذا البحث بصورة أشمل وأكمل .

أمثلة ونماذج

الديك .. والكلب .. والذئب الجائع

توثقت الصحبة بين ديك وكلب كانا يعيشان فى بيت واحد ، وقد زاد من الألفة بينهما أنهما كانا يؤديان مهمة متشابهة : فالديك ينبه النائمين إذا ما بدأ نور الصباح بصياحه ، والكلب ينبه الغافلين إلى الوافدين من الغرباء والأخلاء بنباحه ..

وفى يوم قال الكلب للديك : إننا هنا نعيش بين جدران أربع ، وسنقضى حياتنا رهن هذا البيت ، ولم نخرج إلى الخلاء فى مرة .. ونشاهد ما فى الدنيا من المناظر الجميلة والمباهج الحلوة ، فهل لك أن توافقنى على أن نخرج فى نزهة إلى الخلاء نستروح فيها النسيم العليل ، ونشاهد نزه الدنيا ثم نعود ؟

قال الديك : ولكن كيف أخرج إلى الخلاء وأنا لا أستطيع أن أدفع عن نفسى السوء إذا ما دهمنى ذئب ، أو هاجمنى ثعلب لئيم ؟

قال الكلب : لاتخف ، فإنك ستكون فى حمايتى ، وسأفديك بروحى ، فإننا أخوان ..

ووافق الديك على اقتراح الكلب ، وخرج الاثنان للنزهة ، وانطلقا فى الخلاء يسرحان ويمرحان ..

وأغرتهما المناظر الجميلة فأخذا يوغلان فى النزهة حتى قطعا شوطاً طويلاً من الطريق ، وغربت الشمس ، وهبط عليهما الظلام فجأة ، وتنبه الديك من غفلته . ففزع إلى صاحبه يسأله :

– كيف نستطيع العودة فى هذا الظلام ، وأنا لا آمن على نفسى من أن يفترسنى الذئب ؟

قال الكلب : لاتخف ولاتجزع .. سنقضى ليلتنا هنا ، أنت تصعد إلى هذه الشجرة العالية وتنام فوقها ، وأنا سأنام تحت جذعها .. وستكون بهذا فى مأمن .. فلن يستطيع أن يصل إليك ذئب ولاثعلب ..

واستمع الديك لنصيحة الكلب .. وصعد إلى الشجرة ونام فوقها .. وأقعى الكلب عند جذعها ليستريح ..

وأمضى الصاحبان الليل على هذه الحال .. حتى إذا مالاح ضوء الفجر .. نادى الديك صاحبه الكلب قائلاً :

– لقد جاء الفجر .. فهل تأذن لى فى الأذان كما هى عادتى ؟

قال الكلب : لك ماتشاء .

ورفرف الديك بجناحيه ، وصاح مؤذناً للفجر ..

وكان فى أقصى الحقل ذئب يرقد .. فلما سمع صياح الديك .. نهض يتلمظ ويصك أنيابه وهو يقول : ياله من فطور دسم شهى على الصباح ثم أخذ يعدو ويثب نحو الصوت حتى انتهى إلى الشجرة ، وأقعى الذئب وتطلع إلى أعلى .. ونادى الديك قائلاً :

– ياشيخ الديوك .. لقد أذنت للصلاة .. فهل لك أن تنزل حتى نؤدى الصلاة حاضرة عافاك الله ؟

قال الديك : إن الإمام يرقد عند جذع الشجرة ، فقل له يقيم للصلاة !

ونظر الذئب فوجد الكلب أمامه .. فانطلق يعدو إلى حال سبيله .. فناداه الديك قائلاً :

– لماذا لم تنتظر الصلاة ياشيخ الذئاب ؟

قال : لأنى نسيت الوضوء .. !

بعر السويس .. ولاتمر بلبيس ..

فى ناحية بلبيس بمحافظة الشرقية حيث يكثر النخيل ، وتتعدد أصناف التمر والفاكهة – كان يعيش غراب سمين .. تربى على العز والرفاهية وسعة الرزق ..

كان يقضى يومه متنقلاً من نخلة إلى نخلة .. قافزاً من غصن إلى غصن .. ينقر ماشاء من الرطب ، ويتناول مايشتهى من الفاكهة الناضجة .. وكان يجد من أهل الشرقية ماهو مشهور عنهم من السماحة والتسامح .. فكأن تلك البساتين وأحراج النخيل كانت كلها ملكاً له .. يتصرف فيها كما يريد .

وفى يوم عزم غراب بلبيس على الخروج فى نزهة طويلة .. فانطلق يضرب الهواء بجناحيه صاعداً وهابطاً حتى انتهى به المطاف إلى السويس ..

وكانت السويس فى ذلك العهد مرفأً صغيراً قليل العمران ، لايعرف الحركة إلاّ من العام للعام حيث يستقبل وفود المسلمين المسافرين إلى الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج ..

وفى السويس رأى غراب بلبيس غراباً أعجف البدن ، ناحل الجسم وعظامه تبدو بارزة من الريش لشدة نحوله وهزاله ، فمال عليه وسأله :

– كيف حالك ؟

قال غراب السويس : هى كما ترى والحمد لله ..

قال له : إنك تعيش هنا فى مكان قفر .. فمن أين تجد طعامك ؟

قال : من العام للعام تأتى إلى هنا جمال الحجاج والمحمل النبوى .. فتترك فى مباركها بعرات أظل طول العام أنبش فيها لعلى أعثر على حبة قمح أو فول ، ومن هذا أجد قوتى وقوام حياتى ..

قال له : إنك ياصاحبى تعيش فى الحرمان .. والخير فى الدنيا كثير .. ولو أنك خرجت معى من هذه المنطقة فستجد من سعة الرزق ماتحب ، ومن ألوان الطعام ما يملأ عظامك المعروقة باللحم والشحم ..

قال غراب السويس : ولكنى فى هذا المكان القفر أعيش حراً طليقاً ، لايرهبنى تهديد إنسان ، ولايزعجنى جبروت مخلوق ، والحرية مع الجوع خير من الشبع مع ذل النفس ، وهوان العبودية ورهبة الخوف ..

قال غراب بلبيس : ذلك كلام العاجزين الذين يقعدهم العجز عن الوصول إلى ما يرغبونه . وعندنا هناك فى بلبيس من أصناف التمر والفاكهة مالايوصف .. ومن البساتين وأحراج النخيل مالايحد ، وكل هذا أطويه تحت جناحى .. وإنى فيه حر التصرف أتناول منه ما أريد وأشتهى ، وإنى أدعوك إلى قضاء أيام فى ضيافتى حتى ترى بنفسك الفرق بين ذل الحرمان وعز الرفاهية ..

وطار غراب السويس مع صاحبه .. وعاد الغرابان إلى بلبيس ..

وكان غراب بلبيس يبدو فى كثير من الزهو والخيلاء ، فانطلق يطير من نخلة إلى نخلة ، وهو ينعق نعيقاً مزعجاً متواصلاً ، ويضرب الرطب بمنقاره عابثاً ، فيتساقط على الأرض أكواماً ، وقصده أن يظهر لصاحبه مدى مايتمتع به من السطوة والنفوذ !

وضاق صاحب النخيل بنعيق الغراب المنكر ، وبما يصنع من العبث بالرطب وإتلافه على غير طائل ، فقال فى نفسه : والله لقد تساهلنا مع هذا الغراب ، فطغى وبغى ، وخرج عن طوره حتى أصبح حرباً على أرزاقنا ، وكنا نحتمل غراباً واحداً فأصبحا غرابين !

ثم مال الرجل إلى الأرض ، وتناول حجراً وغافل الغراب العابث ، وقذفه بالحجر ، فأصاب منه مقتلاً ، وسقط صريعاً لساعته !

ورأى غراب السويس ما حل بصاحبه السمين .. فأسرع يضرب الهواء بجناحيه عائداً لائذاً بالقفز الذى كان يعيش فيه وهو يقول :

— بعر السويس ولاتمر بلبيس !

لماذا شنقوا الرجل القصير؟ ..

شعر رجل من أبناء القاهرة بحركة غريبة فى بيته فى أثناء الليل ، فنهض من نومه يتبين الأمر ، ففوجئ بلص يجمع متاع الدار ليفر به ، ولما أحس اللّص أن صاحب الدار تنبه لوجوده أسرع فتعلق بالنافذة لينجو بنفسه ، ولكن النافذة لم تحتمل ثقله .. فانخلعت من الحائط ، وسقط اللص على الأرض فكسرت ساقه .

وأصبح الصباح ، فتحامل اللص على نفسه ، وتوجه إلى قراقوش .. وقصّ عليه قصته .. وتوجع مما أصابه وقال : إن صاحب الدار قد تسبب فى كسر ساقى ، وبهذا عطّل من جهدى فى السعى للحياة !

وأرسل قراقوش فى طلب صاحب الدار وقال له : لقد جنيت على اللص جناية لاتغتفر ، فتسببت فى كسر ساقه ؛ لأنك لم تحكم وضع النافذة فى الحائط .. ولابد من عقابك !

قال صاحب الدار : ولكن يامولاى لست المسئول عن إحكام النافذة ، وإنما هو النجار الذى تولى صنعها وتركيبها ..

قال قراقوش : إذن أحضروا النجّار .. فهو المسئول عن هذه الجناية النكراء ..

وجاءوا بالنجار فقال : وما شأنى فى هذا يامولاى . إن النافذة لم

تكسر .. ولكنها انخلعت من الحائط فالمسئول هو البناء ؛ لأنه لم يحكم صنع الحائط حتى تكون النافذة محكمة فى وضعها ..

قال قراقوش : هذا صحيح ، ولابد من عقاب البناء ، فأحضروه ليلقى جزاءه !

وحضر البناء وقال : صحيح يامولاى .. إن الحائط لم يكن قوياً محكماً .. ولكنه ليس ذنبى ؛ وإنما هو ذنب صباغ ماهر نشر فوق السطح المجاور ملابس داخلية للنساء .. مصبوغة بأزهى الألوان .. فطارت بلبى وشتت عقلى ! وانصرفت أفكارى عن إحكام البناء ، والمسئول هو الصباغ ..

وصاح قراقوش : إذن فأمسكوا بالصباغ المجرم ، واشنقوه على باب دكانه ..

وذهب رجال قراقوش ، وأمسكو بالصباغ ، وعلقوا الحبل فى باب الدكان ، ولكنهم لما وضعوا عنقه فى الحبل ليشنقوه تبين لهم أن الرجل طويل ، فلم ترتفع قدمه عن الأرض ..

واحتاروا ماذا يصنعون ، فعادوا إلى قراقوش وقالوا : إنهم لايستطيعون شنق الرجل على باب دكانه لأنه أطول من الباب بكثير !

فصاح فيهم قراقوش قائلاً : يا لكم من أغبياء لاتفهمون ! اذهبوا وأمسكوا بأى رجل قصير واشنقوه !

وصدع الأغبياء بأمر قراقوش ، وانتظروا على باب الدكان حتى مرّ بهم رجل قصير .. فأمسكوا به وشنقوه !

عندما يصبح أبو الحصين جملاً ..

فى أيام الحرب العالمية الأولى وضع الإنجليز مصر تحت حمايتهم ، وجعلوا كل ما فيها من الخبرات والأرزاق تحت تصرفهم ، حتى استولوا على مافيها من الجمال والخيل والحمير ، ونهبوا قوت الفلاحين من الذرة والقمح والشعير ..

ففى تلك الأيام السوداء لم يكن لرجال الإدارة من عمل إلا تنفيذ أوامر السلطة العسكرية بجمع الرجال والحيوانات والأقوات ونقلها لإمداد الجيوش البريطانية فى ميادين الحرب ..

وضاق الأمر بالعمدة وتحير ماذا يصنع ؟ فقد صدرت إليه الأوامر من قبل عدة مرات بجمع الجمال من البلدة .. حتى لم يبق فيها جمل ولاناقة .. فمن أين يأتى بالجمال هذه المرة .. وهو إذا لم يرسل جمالاً إلى المديرية كطلب السلطة العسكرية فسيكون عقابه على الأقل الطرد من منصبه والمحاكمة بتهمة عدم التعاون مع السلطات الحاكمة فى البلاد ؟ ..

وأخذ العمدة يفكر فى مخرج من هذا المأزق على غير طائل ، وخرج يتمشى بين المزارع ، وهو شارد الفكر لايدرى ماذا يصنع ؟ وفجأة رأى أمامه «أبو الحصين» يجرى بين المزارع وهو مكروب النفس فناداه .

– إلى أين (يابو الحصين) .. ومالك مكروباً هكذا ؟ ..

– انت مادريتش ياحضرة العمدة ؟

– دريت بإيه (يا ابو الحصين) .

– السلطة العسكرية أصدرت الأمر بجمع الجمال ..

– وانت مالك (يا ابو الحصين) ، وإيه يعنيك ، ولا انت عمدة ، ولاشيخ بلد ..

– وانا مالى ازاى .. البلد مابقاش فيها جمال ولاحمير .. مابقاش إلا يخدونا

– قل لهم انك مش جمل (يا ابو الحصين) .

– ياعم مين يقول ومين يسمع .. دول حايخدونى وعلى ما اثبت لهم أنى مش جمل أكون مت تحت الرجلين !

هذه هى طبيعة اللئام

قال رجل : خرجت مسافراً ، وبينما كنت أجتاز البرية رأيت أعرابياً جالساً فى ظل نخلة .. يتناول غذاءه .. وقد مد الطعام بين يديه من اللحم والرقاق والجبن والتمر ، فسلمت عليه ، فرد السلام ولم يزد ، ثم قال :

– من أين الرجل ؟

قلت : من حيّكم وواحد من عشيرتكم .

قال : هل علمت شيئاً عن ولدى عثمان ؟

قلت : بارك الله فيه ، إنه زينة الصبيان ، يملأ الحىّ لعباً وجرياً ووثباً ..

قال : وأم عثمان كيف هى ؟

قلت : كأنها فلقة القمر تلبس لباس الجمال والكمال ، ولاتخرج من باب الدار إلا منحرفة الجانب .

قال : وكلبى الدفاع كيف هو ؟

قلت : يملأ الحى نباحاً والناس فى أمن على أنفسهم وأموالهم ليقظته

قال : وجملى متاع ؟

قلت : تبارك الله بروق العين منظراً وقد سمن حتى صار له سنامان !

قال : هل دارنا على حالها ؟

قلت : هى كعهد الناس بها عالية البنيان ، يستظل بظلها الرائحون والغادون ..

ثم مضى الرجل فى طعامه غير حافل بى ولا مبال بشأنى .. وتحركت فى نفسى شهوة الطعام ، وأخذ بطنى يقرقر نهماً إليه .. وليس هناك مايبعث الرغبة فى الطعام مثل أن ترى غيرك على الطعام ..

وحاولت أن أنبه الرجل لعله يدعونى إلى إصابة شىء من طعامه .. فمرة كنت أسعل .. ومرة كنت أتمطى وأتثاءب .. ولكنه أصمّ أذنيه عنى .

وصادف أن مر بنا كلب هزيل أعجف وأقبل على الأعرابى يبصبص بذنبه لعله أن يلقى إليه بكسرة ، ولكن الأعرابى ضحك ضحكة غليظة كأنها نهيق الحمار ، ثم قال لى :

– هيهات أن يكون هذا الكلب مثل كلبنا الدفاع ؟

قلت : إن كلبكم أحسن لولا أنه مات .

فصاح : وامصيبتاه ! أمات كلبنا الدفاع ؟

قلت : أجل مات ! فقد كان ينهش رمة جملكم متاع ، فعلقت بحلقه قطعة عظم فغصّ بها فمات !

قال : وجملنا أيضا قد مات وكيف مات ؟

قلت : عثر بقبر أم عثمان فوقع فانكسر ومات !

قال : وهل ماتت أيضا أم عثمان ؟

قلت : أجل ماتت حزناً على عثمان !

فأخذ يضرب رأسه ويقول : ولدى عثمان مات ؟

قلت أجل ، وقعت عليه داركم فمات !

فانطلق يعدو فى البرية وهو يصيح : وامصيبتاه ! . واحسرتاه ! ! وقد ترك طعامه فى مكانه فحططت به حتى أتيت عليه ..

وهكذا طبيعة اللئام .. لاتستطيع أن تأكل فى هنائهم ، وإنما تأكل فى عزائهم ..

غدر الحيّة .. أم غدر الإنسان ؟

خرج أخوان فى سفر .. ثم نزلا يستريحان فى ظل شجرة بجوار نبع من الماء .. فخرجت لهما حيّة من تحت حجر بجوار النبع .. وألقت إليهما بدينار من الذهب ..

وأقام الأخوان ثلاثة أيام ، وفى كل يوم كانت تخرج الحية وتلقى إليهما بدينار ..

فقال أحدهما : إن هذه الدنانير الذهبية لابد أن تكون من كنز من الذهب .. وأرى أن نتربص للحية حتى تخرج ، ثم نقتلها ونحفر على الكنز ونأخذه ..

فحذره أخوه من ذلك ، وقال له : أخشى أن تقتل الحية ولا نجد الكنز ، وخير لنا أن نرضى بالدينار كل يوم وهو رزق كبير ..

فلم يسمع أخوه للنصيحة .. وأصر على خطته .. وانتظر حتى خرجت الحية لتلقى إليهما بالدينار .. فضربها بفأسه .. فأصابها فى رأسها .. ولكن الحية وثبت عليه فقتلته ، ثم عادت واختبأت فى جحرها .. فحمل أخوه جثته ودفنه وأقام بجوار قبره ..

وبعد يومين خرجت الحيّة معصوبة الرأس ، فناداها واعتذر لها عن فعلة أخيه ، وقال إننى حذرته من ذلك فلم يسمع نصيحتى ، وأرى أن

نعود إلى ما كنا عليه من قبل ، وطلب أن تلقى إليه كل يوم بدينار ويعيشا فى صفاء .

ولكنها أجابته بأنها لن تفعل ذلك أبداً ..

قال : ولماذا ؟

قالت : لأنك لن تنسى قبر أخيك ، وأنا كذلك لن أنسى هذه الضربة فى رأسى ، ولهذا لن يكون بيننا صفاء !

علم النحو ..
وعلم السباحة ..

قبل اختراع القطر والسيارات وإنشاء السكك الحديدية كان الناس يعتمدون فى أسفارهم وتنقلاتهم على السفن بالنيل ، وفى يوم خرج شيخ كفيف البصر من المجاورين بالقاهرة للسفر إلى قريته فى الشمال .. فاستقل السفينة من مرسى بولاق بعد أن اتفق مع ربان السفينة على أجرة السفر ..

وبعد أن سارت السفينة شوطاً فى النيل صاح الشيخ بربان السفينة قائلاً :

– ياريس إلى أين وصلنا فى رحلتنا ؟ ..

فأجابه الربان : لقد وصلنا إلى بلدة بنها .

فنهره الشيخ قائلاً : لقد كسرت النحو ، وقد ضاع عليك ربع أجرة السفر ، إنما هى بنها العسل ..

وبعد أن سارت السفينة شوطاً آخر صاح الشيخ بالربان قائلاً :

– وإلى أين وصلنا الآن ياريس ؟

قال الربان : لقد وصلنا إلى مدينة ميت غمر ونطق بحرف التاء بالسكون ..

فأنكر عليه الشيخ ذلك قائلاً : لقد كسرت النحو وضاع عليك ربع الأجرة الثانى ، وإنما هى مدينة ميت غمر ونطق بالتاء بالضم ..

ثم سارت السفينة شوطا ثالثاً ، ونادى الشيخ الربان مرة ثالثة قائلاً :

– ياريس إلى أين انتهينا فى الطريق ؟

قال الربان : لقد صرنا بإزاء مدينة طنطا .

فغضب الشيخ وزمجر ، وقال كسرت النحو وضاع عليك ربع الأجرة الثالث .. وإنما الصحيح أن تقول طندتا .

ولم يكد الشيخ ينتهى من نحوه حتى هبت عاصفة شديدة على السفينة ، فقلبتها فى النهر .. وهنا صاح الربان بأعلى صوته قائلاً :

– ياشيخ ألا تعرف السباحة ؟

قال : كلا

قال : لقد ضاع عليك عمرك كله !

من عمود إلى عمود

غضب أحد الملوك الظالمين على شيخ من الصالحين اعتاد أن يواجهه بكلمة الحق .. وأن يعلن رأيه صراحة فى تصرفاته ضد الشعب ..

وكان الملك إذا ما غضب على أحد من رعيته طلب منه أن يختار لوناً واحداً من الطعام يعيش عليه ، ثم يأمر بإلقائه فى السجن ، وألاّ يقدم إليه إلا صنف الطعام الذى اختاره ، ولكن النفس لاتستطيع الصبر على طعام واحد ، فلا يلبث أن تعاف نفسه الطعام ، ثم يذبل ويتهاوى من الضعف والسأم حتى يموت ، ولما غضب الملك على الشيخ الصالح طلب منه أن يختار لنفسه طعاماً واحداً ليعيش عليه .

وكان الشيخ يعرف أن الله امتحن بنى إسرائيل بالصبر على طعام واحد فعجزوا ، ولهذا اختار أن تقدم إليه رءوس الضأن ، لأن رأس الضأن يحتوى على أصناف من اللحم مختلفة المذاق ، فطعم اللسان غير طعم العيون ، غير طعم الجبهة ، وبهذا يتفادى من السأم الذى يكون من تناول طعام واحد ، ودخل الشيخ السجن ، وعاش على رءوس الضأن ..

ومضت سنوات ، والملك سادر فى ظلمه والشيخ صابر فى سجنه .. وفجأة تذكر الملك الشيخ السجين وعجب الملك : كيف لايزال

هذا الشيخ على قيد الحياة مع أن الذين سبقوه إلى السجن لم يستطيعوا أن يصبروا على طعام واحد وماتوا بعد شهور ، ولكن الشيخ عاش سنوات ؟

وتملك الغيظ الملك ، وأرسل فى طلب السجان والموكل بحراسة الشيخ وسأله عن حاله ..

فقال السجان : إنه فى صحة جيدة ، ويقضى وقته كله فى الصلاة والعبادة وتلاوة القرآن ..

قال : ألم يطلب منك شيئاً أو يحدثك عن شىء .. ؟

قال السجان : كلا فقد عاش فى السجن طوال السنوات الماضية لم أسمعه يتكلم كلمة واحدة .. ولكنه بالأمس طلب منى أن أنقل له فرشته من جوار العمود الذى كان يجلس بجانبه إلى عمود آخر ..

فزمجر الملك فى غيظ ، وصاح فى غلظة : هذا لايمكن أبداً .. وخذ هذه الفروة وقدمها إليه ..

وحمل السجان الفروة ، وقصد إلى الشيخ وقال له : هذه الفروة مرسلة إليك من الملك ..

وابتسم الشيخ الصالح فى هدوء ووداعة ، وتناول مسماراً كان بجانبه وقال للسجان : إننى قبلت هدية الملك ، ورجائى أن تذهب وتقدم إليه هذا المسمار . .

واستجاب السجان لرجاء الشيخ ، وحمل المسمار إلى الملك ، وما كاد الملك يتناول المسمار من السجان حتى تخاذل فى مكانه ، وعلا

وجهه الوجوم ، وصاح فى حشرجة :

– أفرجوا عن الشيخ المظلوم ..

وأقبل الذين فى بطانة الملك يسألونه عن السر فى هذا التغيير المفاجئ ..

فقال : لقد وعظنى هذا الشيخ عظة بالغة ، وكشف لى عن حقيقة الحياة .. فقد طلب من السجان أن ينقل له الفرشة من عمود إلى عمود وهو يشير بذلك إلى القول المأثور : من عمود لعمود يأتى الله بالفرج ..

فأرسلت إليه مع السجان فروة ، وأنا أعنى أن أقول له : لو كان عمرك عدد شعر هذه الفروة من السنين فلن تخرج من السجن !

فكان رده على ذلك أن بعث بمسمار ليقول لى : وهل سمرت الفلك عن المسير وأخذت عهداً على الدهر بالجمود ؟

ومن الذى يستطيع أن يمسك الفلك عن المسير مهما يكن من القوة والجبروت ؟

مسجد بدون عيش

نزل رجل مسافر على إحدى القرى فى ريف مصر ، وكان الرجل لايحمل زاداً لسفره ، وقد عضه الجوع بنابه ولم يكن يعرف أحداً فى القرية ينزل عليه ، فعول على أن يتوجه إلى مسجد القرية لأداء الصلاة ، ولعله أن يجد كريماً من أهلها يدعوه إلى تناول الطعام ..

ووجد الرجل مسجداً جديداً أنيقاً فدخل لأداء الصلاة ، وقد امتلأت نفسه بالأمل فى أن يجد كرماً سابغاً من أهل القرية الذين بذلوا لبناء هذا المسجد العظيم ..

وأدى الرجل الصلاة فى جماعة ، وأطال الركوع والسجود والخشوع ، وظهر فى هيئة الصالحين المخلصين لعله يعطف الأنظار إليه ، ويجد من يدعوه إلى مائدته ..

ولكن جميع المصلين من أهل القرية ما كادوا يفرغون من صلاتهم حتى حمل كل منهم حذاءه وخرج فى طريقه يتمتم ببعض الدعوات والاستغفارات ، ولم يلتفت أحد منهم إلى الضيف الغريب ..

ووجد الرجل الغريب نفسه وحيداً فى المسجد واشتد عليه الجوع ، وتملكه الغيظ من أهل هذه القرية الذين يعرفون أن حق الله كله فى الصلاة والدعاء ، وأن الغريب ليس له مكان فى بيوتهم .. ولا حرمة له

عندهم ، فأمسك بقطعة من الجير وكتب على باب المسجد بخط غليظ :

– جامع بلا عيش بُنىَ ليش ؟

وقرأ أحد أبناء القرية هذا الكلام ، فأمسك هو الآخر بقطعة من الجير.. وكتب تحت الكلمة :

– بُنى للصلاة .. ياقليل الحياه ؟

فاشتد الغيظ بالضيف الغريب ، واشتدّ عليه الجوع فأمسك بقطعة الجير وكتب تحت الكلمة السابقة يقول ؟ « تجوز الصلاة فى الخلاء ، مهدوم الجامع على رأس اللى بناه !

الكذابون الثلاثة ..
وأكبر كذبة ..

كان ثلاثة من الكذابين يسيرون فى الطريق .. فعثروا على دينار فقال أحدهم : كل واحد منا يروى كذبة فمن كانت كذبته أكبر أخذ الدينار .. واتفقوا على ذلك .. وبدأ أولهم يروى كذبته فقال :

كان أبى عطاراً .. وكان يدور فى البلاد بالعطارة .. فاتفق فى مرة أن اشترى بيضاً ووضعه تحت فرخة كانت عندنا .. ففقس البيض وخرجت الكتاكيت ، وبينها ديك كبير عظيم .. فلما كبر الديك كان أبى يضع عليه الخرج وجميع مواد العطارة ويركب عليه ويدور فى البلاد .

ثم أصيب الديك بعقر فى رجله ، فذهب به أبى إلى البيطار فوصف له نوى التمر يدق ويوضع على موضع العقر ، ففعل أبى ذلك ، وبعد أيام طلعت فى مكان العقر نخلة ، وكبرت وصار عليها الرطب ، فكان الجيران يرجمونها بالطوب لأجل الرطب ، فينزل الرطب ويبقى الطوب فوق النخلة حتى صار فوقها واد تبلغ مساحته نحو فدانين ، فأخذ أبى محراثاً وثورين وطلع إلى ذلك الوادى وحرثه وزرعه بطيخاً .

فلما استوى البطيخ أخذت واحدة وقطعتها بالسكين ، ولكن السكين غاصت فى جوفها فربطتُ حبلاً فى وسطى ونزلت إلى جوف البطيخة .

فوجدت ثلاثة أشخاص يدورون فيها فقلت لهم : هل أبصرتم لى سكينا فى جوف البطيخة ؟

فقالوا : إنك مسكين ! لقد ضاعت لنا عدة جمال فى جوف البطيخة ، وقد مضت عشرة أيام ونحن نفتش عنها ، فما وجدناها فكيف تبحث أنت عن السكين ؟

فأسرعت وربطت نفسى بالحبل وطالعت من البطيخة حتى لا أغرق فى جوفها ..

فقال صاحباه : أنت والله أحق بالدينار !

بردعة من أفخر ملابس الأمير

قصد أحد الشعراء إلى أمير تركى ممن كانوا يحكمون مصر فى غابر الأيام .. ومدحه بقصيدة من رقيق الشعر العربى .

وسأل الأمير جلساءه : ماذا يريد هذا الشاعر ؟

فقالوا : إنه يريد أن تخلع عليه حلة جميلة ، فأمر الأمير بإعطائه بردعة ولجاماً ..

وتقدم الشاعر فأخذ البردعة ووضعها فوق ظهره .. وأمسك اللجام بفمه وسار فى الطريق ..

وتجمع الناس حول الشاعر يسألونه عن هذا الذى صنعه بنفسه !

فقال : لقد مدحت الأمير بقصيدة من أحسن شعرى ، فخلع علىّ خلعة من أفخر ملابسه !

وضج الناس بالضحك .. وانطلقوا يتحدثون بالخبر فى المدينة ؛ حتى شاع وملأ الأسماع .

وعرف الأمير أنه صار سخرية بين الناس ، وأن نكتة الشاعر سارت على كل لسان ، فأرسل فى طلب الشاعر وخلع عليه أفخر الملابس ، ومنحه العطايا الجزيلة وهو يقول : لعلك لاتعود ..

فضحك الشاعر قائلاً :

- لقد كنت أسبق أيها الأمير بالجميل .. وإن منطق الشعراء من عطايا الأمراء ..

من نهر النيل إلى البحر المالح ..

قبل إقامة الكبارى على النيل كان الناس يتنقلون عبر النهر فيما بين القاهرة ومنيل الروضة بالمعديات من القوارب والمراكب الشراعيّة ..

وحدث فى يوم أن حضر إلى القاهرة رجلان من منيل الروضة لقضاء سهرة فيها ، فلما انقضت السهرة توجها إلى المعدية لعبور النيل ، فوجدا المراكبى ومساعده يغطان فى نوم عميق ثقيل من طول العناء فى النهار والتحشيش فى الليل .. فما زالا بهما حتى أيقظاهما من نومهما العميق الثقيل ..

وصعد الرجلان إلى المعدية .. وجلس المراكبى على الدفة .. وأخذ مساعده مكانه بين المجدافين .. وراح يضرب بهما الماء .. ولكنه لم يكد يضرب عدة ضربات حتى انقطعت أنفاسه ، وجف ريقه من كثرة التحشيش فتناول كوز الماء واغترف به غرفة من النهر ليبل ريقه الجاف ، ولم يكن يعرف أن المراكبى قد أذاب فى الكوز كمية من الملح ليعالج به ضرسه ، فما كاد الماء يصل إلى حلقه حتى وجده ملحاً أجاجاً ..

وكان الحشيش لايزال يدور برأس الرجل ، فصاح بأعلى صوته ينادى على زميله ..

- ياريس عويس
- هوه
- إيديك على الدفة ، فقد دخلنا البحر المالح .. !

صداقة الدموع

قال رجل .. كنت مسافراً .. فانتهيت فى الطريق إلى شجرة ظليلة .. فآثرت أن أستريح فى ظلها بعض الوقت ..

وماكدت أفعل حتى لمحت إلى جوار جذع الشجرة شيخاً يبكى بكاء حاراً .. وإلى جانبه كلب ممدد على الأرض ..

وأشفقت على الرجل ، وأقبلت عليه فى لهفة أستطلع شأنه لعلى أستطيع أن أخفف عنه ما به، أو أقوم نحوه بشىء ، فلما سألته عن حاله .. أجابنى بصوت متهدج تخنقه العبرات قائلاً :

– كلبى ! كلبى ! إنه صاحبى الوفى إذا ما غدر الأصحاب .. إننى لا أحتمل أن أراه فى هذه الحالة الشنيعة .

فقلت : وما بال كلبك ياسيدى ؟ وماذا أصابه ؟

قال : مسكين ! إنه يجود بأنفاسه الأخيرة إنه يموت ..

قلت : هل نزل به مكروه أو عقره ذئب ؟

قال : كلا .. ولكنه يموت من الجوع ، ولايجد من الزاد ما ينقذ حياته ..

فأخذت أواسى الرجل بما حضرنى من كلمات العزاء والمواساة ، ولكنى لم ألبث أن لمحت إلى جانب الرجل جراباً منفوخاً فسألته :

– وما الذى فى هذا الجراب يا أخى ؟

فقال : أرغفة أحملها لزادى ..

قلت : الويل لك ! أتحمل كل هذه الأرغفة ولا تقدم منها ما ينقذ حياة كلبك الوفى العزيز الذى تبكى عليه بالدمع الغزير ؟

فحملق فى الرجل فى دهشة وهو يقول :

– حقاً ياسيدى إنه وفى عزيز جداً ولكن الصلة الوثيقة بيننا لم تصل إلى باب هذا الجراب ..

الفهرس

الموضوع	صفحة

الكتاب القادم

ألف باء السياسية

د . أحمد حمدى محمود

رقم الإيداع	١٩٧٩ / ٣٣٤٦
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٧٤٥ - ٩

١ / ٧٩ / ٥٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)